دراسات أدبية

مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية

دورية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والإستشارات والخدمات التعلّمية
العدد الأول : ماي2008 م/ جمادى الأولى1429 هـ/ الجزائر

- "المرجعية اللغويّة في النظرية التداوليّة"

الدكتور: عبد الحليم بن عيسى
جامعة وهران، الجزائر.

……

- اللغة العربية ومشكلة المصطلح

الأستاذ: إبراهيم منّاد
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة مستغانم

……

- اللغة وأسئلة القصّ في ضوء المنهج البنيوي

الدكتور: هشام خالدي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة المدية

……

- "الاتّصال اللساني بين البلاغة والتداولية"

الأستاذة: سامية بن يامنة
جامعة مستغانم، الجزائر.

……

- التناص : إشكالية المصطلح والمفاهيم

االأستاذة محصول سامية
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة المدية

……

- إبداع النص الأدبي بين الوعي واللاوعي

الأستاذ: عبد الحليم ريوقي
جامعة البليدة.

……

- قصيدة النثر بين الواقع والمأمول
-قراءة في المصطلح -

الأستاذة : فتيحة بن يحي
المركز الجامعي يحي فارس بالمدية

"الاتّصال اللساني بين البلاغة والتداولية"

الأستاذة: سامية بن يامنة
جامعة مستغانم، الجزائر.

تقديم

اهتدى الإنسان انطلاقا من فطرته وحاجته الطبيعية إلى الاتّصال من أجل التفاهم ونقل المعلومات، وخدمة لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائل متنوّعة، وكانت اللغة أرقاها، وأكثرها فعّالية في الإبلاغ. غير أنّ استعماله لها لم يكن جزافيا وغير مضبوط؛ بل ظلّ مرتبطا بنظام تكوّنه مجموعة من القواعد، والغاية من كلّ ذلك ضمان نجاح الاتّصال اللغوي.

وقد عُدّ بذلك "الاتّصال" ضرورة إنسانية لتماسك الأفراد والجماعات وحتّى الشعوب، فهو المحور المركزي الذي على أساسه يتشكّل المجتمع وينمو ويتطوّر؛ بل صار كما يذكر "هوغ Hogue" يشكّل جزءاً من ديكور الإنسان الذي عرف تطوّرات مع مرور الزمن (1)

ويؤكّد التاريخ الإنساني أنّ الاتّصال كان في بداية أمره يتم بواسطة الإشارة والرمز، ثم سرعان ما تنبّه الإنسان إلى قدرات جهازه النطقي فاستعمله بأصوات متمايزة للتفاهم مع الآخرين، ثم تنبّه إلى أعضائه الأخرى فاهتدى إلى الاتّصال الكتابي ليبلّغ غير الحاضر بين يديه، وبهذا التطوّر استطاع أن يجعل الآخرين يشاركونه خبراته وأفكاره ومشاعره.

وقد ولّد الاهتمام بـ "الاتّصال" -بأشكاله المختلفة- علما يدرس ذلك؛ وهو "علم الاتّصال". وتعزّزت بقوّة حاجة الإنسان إليه في العصر الحديث، حيث أضحى من الضروري دراسة قضاياه دراسة علمية، من أجل الإفادة منها في حل الإشكاليات التي تُطرح في إطاره، وهذا ما يمكن ملاحظته أثناء الحرب العامية الثانية، والحرب الإعلامية التي دارت في الخليج العربي أيضا.

---

(1) ينظر مدخل إلى نظريات الاتّصال المعاصرة، محمد مزيان، الجزائر منشورات دار لالة سكينة، ط1/ ص11.

ونظرا لهذه الأهمية فقد شغل موضوع "الاتّصال" معظم العلماء والباحثين المختصّين في مختلف فروع المعرفة الإنسانية؛ سواء في البحث في أركانه ومكوّناته واللغة التي تستعمل لنقل الرسالة الإبلاغية، أو في وظائفه ودوره في التأثير على الفرد، أو غير ذلك. وفي رحاب هذا التنوّع كان من الضروري الأخذ من النتائج العلمية التي تناولت مسائله بالبحث العلمي الدقيق؛ مثل اللسانيات والبلاغة والتداولية وعلم الاجتماع وعلم النفس.

1- علم الاتّصال نظرة تاريخية:

إنّ البحث في "الاتّصال" قديم قدم الوجود البشري، ومردّ ذلك إلى الإنسان في حدّ ذاته الذي لا يستطيع أن يحقّق وجوده بدون هذا الفعل. لذلك كان البحث في قضاياه ضاربا جذوره في أعماق الدراسات العلمية. ويجب أن نشير ههنا إلى أنّ أول من وضع نظرية له هو اليوناني "كوراكس Corax"، ثم طوّرها تلميذه "تيزياس Tisias"[2]، وكانت نظريتهما مبنية على أسلوب المرافعة، ذلك أنّ هذا الأسلوب يعدّ صناعة الإقناع[3]. كما اعتُبر كل من "أرسطو Aristote" (ت322ق.م) و"أفلاطون Platon" (ت347ق.م) مؤسسي دراسات الاتّصال، بحكم أنّهما توصّلا إلى فكرة جوهرية مفادها أنّ الاتّصال ما هو إلاّ فن، أو صناعة يمكن تعلّمها بالتمرين، لذلك يمكن اعتباره علما قائما بذاته[4].

وقدّم العلماء العرب في العصور الوسطى أفكارا قيّمة في الموضوع، لا تقلّ درجة عما هو موجود في الدراسات الحديثة، فقد كانت لديهم نظرات ثاقبة في وصف العملية الاتصاليّة وأركانها وشروطها ووظائفها، وهذا ما كان ماثلا في ثنايا مصنّفاتهم. ولقد انبثقت هذه العناية من حرصهم على لغتهم "لغة القرآن الكريم"، والتي تمثّل في أدنى تأمّل لها رسالة اتّصالية موجّهة للبشرية. فالقرآن الكريم يمثّل عملية الاتّصال بكامل عناصرها

---

[2] كوراكس Corax وتيزياس Tisias فيلسوفان يونانيان، عاشا في القرن الخامس قبل الميلاد في صقلية (مستعمرة يونانية آنذاك) قبل السفسطائيين والإسكندر المقدوني، ويعدّان من الأوائل الذين اهتموا بفن البلاغة، حيث وضعوا لها خصائصها التي ربطوها أكثر بالإقناع.

[3] ينظر مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيرية، فضيل دبليو، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998، ص24.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص24.

من مرسل ومرسل إليه ورسالة وقناة اتّصال وأثر[5]. لذا دعا العقول لأن تتأمله وتبحث فيه، فكثرت المؤلّفات التي تكشف عن أسراره.

ومما دعّم البحث العلمي لدى العرب توافرهم على ثلاث مدوّنات أساسية أثرت وقدّمت أفكارا تتعلّق بمباحث "علم الاتّصال"، وهي القرآن الكريم، والشعر الذي عُدّ ديوان العرب؛ بل اعتبره البعض "الصحيفة السيارة[6]"، وكذلك الفنون النثرية كالخطابة والرسائل والتوقيعات والمناظرات.

وكان من نتائج دراسة هذه المدوّنات ظهور علوم كثيرة، تبحث في كل ما تقتضيه اللغة في هذه الأشكال الاتّصالية. وما يمكن أن نقوله إنّ "علم الاتّصال" كعلم قائم بذاته لم يظهر لديهم، ولكن يجب أن نذكر أنّهم قدّموا انطلاقا من التأليف المختلط لديهم آراء قيّمة تتّصل مباشرة بما يتأسّس عليه البحث في هذا العلم.

ونستطيع أن نوضّح ذلك على سبيل المثال بما ذُكر ضمن علوم البلاغة التي تضم المعاني والبيان والبديع[7]؛ فعلم المعاني اهتم بدراسة الأسلوب ككل، وذلك ليطابق مقتضى الحال، وليعبّر عن المراد بأبلغ تعبير. أمّا البيان والبديع فمباحثهما عند العرب تتّصل بجوهر "الاتّصال"؛ إذ يتعلّقان بتنميق الجمل بالصوّر البيانية والمحسّنات البديعية التي تجعل الرسالة اللغوية أكثر تعبيراً عن المراد، وتأثيراً في النفوس. ويمكننا أن نقول إنّ الدراسات اللغوية القديمة بمختلف اتّجاهاتها قد أفادت في تناول العملية الاتّصالية وعناصرها ووظائفها وغير ذلك.

فمن المفاهيم التي ذكروها ذات الصلة بهذا العلم، تلك الحدود المذكورة حول "البيان، والإبلاغ، والتبليغ، والبلاغة" في حدّ ذاتها، وما بيّنوه في كلامهم عن شروط الاتّصال البليغ والهادف، وعمّا يتعلّق بأركان الاتّصال. وقد كان الجاحظ من أبرز العلماء الذين

---

[5] ينظر تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، المغرب، دار المغرب، 2000، ص141.

[6] تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، القاهرة، (د.ت)، ص40-41.

[7] ينظر علم الإعلام اللغوي، عبد العزيز شرف، مصر دار لونجمان للطبع، 1995، ص75.

تناولوا هذه المسائل ؛ يقول –على سبيل المثال لا الحصر– في البيان : «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون ضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ؛ لأنّ مدار الأمر ، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلّغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع» [8] . فهذا القول يشرح الغاية الأساسية التي تتأسّس عليها الرسالة اللغوية ، وهي الفهم والإفهام في أحسن تعبير ، ويبيّن عناصر العملية الاتّصالية التي ترجع إلى :

-القائل : ويقابل المتّصل البليغ ، المخاطب .

-السامع : المتلقّي ، المخاطب .

-كل شيء كشف القناع : ويقابل الرسالة .

-الدليل : الوسيلة .

-الغاية التي يجري إليها القائل : الفهم والإفهام والتأثير .

وتحدّث انطلاقا من صحيفة بشر بن المعتمر (ت210هـ) عن شروط الخطيب ؛ إذ من الضروري «أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وعذبا سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، قريبا معروفا ، إما عند الخاصة إذا كنت للخاصّة قصدت ، وإمّا عند العامة إن كنت للعامّة أردت» [9] . فمن هذه الوصايا يطالب الجاحظ المرسل أن تكون ألفاظه رشيقة ، وأسلوبه سهلا ، وأن يتخيّر لفظه ، وأن يلائم بين كلامه ومستمعيه ؛ فلا يكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمّة . وأن تكون له القدرة على إتقان جميع ضروب الكلام ، بحيث لا يصعب عليه وجه من وجوه القول. [10]

---

[8] البيان والتبيين، ج1 ص76.

[9] المصدر نفسه، ج1 ص136.

[10] ينظر البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، مصر دار المعارف، ط2/ ص37.

2- ماهية الاتّصال:

إنّ مصطلح "الاتّصال Communication" بالرغم من تداوله الواسع بين الأفراد والجماعات إلاّ أنّ مفاهيمه قد تنوّعت. وذكر العلماء أنّه مشتق من الكلمة اللاتنية "Communis" التي تعني في أساسها المشاركة؛ أي الاشتراك سواء في المعلومات وتبادلها، أو في المشاعر والاتّجاهات ووجهات النظر(11).

ولكن ما يجب توضيحه في هذا المقام أنّ كلمة "الاتّصال" تستخدم في سياقات مختلفة، لذلك تتضمّن مدلولات عديدة؛ فباستعمالها المفرد تعني تبادل الأفكار والرسائل، أما في الجمع فتدلّ على الوسائل التي تحمل مضمون الاتّصال(12).

وقد ورد في قاموس "أكسفورد Oxford" أنّ الاتّصال يعني «نقل أو توصيل أو تبادل المعلومات أو الأفكار بالكلام أو الكتابة أو بالإشارات» (13). فتبادل المعلومات يقتضي بالضرورة وجود مرسل ومستقبل أو أكثر في حالات متعدّدة؛ فحينما نتكلّم نجد من يسمعنا، وعندما نكتب نتوقّع من يقرأ لنا، وحينما نستخدم الإيماءات والابتسامات ننتظر لا محالة من يستقبلها.

وذكر كارل "هوفلاند Hof land" أنّ «الاتّصال هو العملية التي يقوم خلالها القائم بالاتّصال بمنبّهات (عادة رموز لغوية) لكي يعدّل سلوك الأفراد مستقبلي الرسالة»(14). فالاتّصال يهدف في أساسه إلى تعديل سلوك المستقبل، انطلاقا من تصوّر معيّن يقدمه المرسل في رسالته اللغوية.

---

(11) ينظر الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو يعقوب، مصر دار مجدلاوي، (د.ت)، ص17.

(12) ينظر: الاتّصال ونظرياته المعاصرة، حسين عماد مكاوي وليلى حسين السيد، بيروت الدار المصرية اللبنانية، ط2/ 2002، ص15.

(13) الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو يعقوب، مصر دار مجدلاوي، (د.ت) ص17.

(14) الاتصال والخدمة الاجتماعية، أميرة منصور يوسف علي، مصر المكتب الجامعي الحديث، 1999، ص17.

أما معجم اللسانيات الذي أشرف عليه "جون ديبوا J.dubois" فقدّم تعريفين:

أولهما: أنّ التواصل تبادل كلامي بين المتكلّم الذي ينتج ملفوظا، أو قولا موجّها نحو متكلّم آخر يرغب في السماع، أو إجابة واضحة أو ضمنية (Explicite ou implicite)، وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلّم.

فالتواصل ضمن هذا المفهوم نشاط يقوم على التبادل الكلامي بين متكلّم يوجّه كلامه نحو متلقٍّ ليجلب انتباهه إلى هدف ما.

ثانيهما: التواصل حدث نبأ، ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عددا من الرسائل المفكوكة(15).

ويرى عبد الجليل مرتاض أنّ هذا المفهوم غامض؛ لأنّه عمّم ما يتّصل باللغة وغيرها؛ إذ لم يقتصر فقط على اللغة، لكونها الوسيلة الأساسية؛ بل تعدّى ذلك إلى خارج اللغة(16). ولكن يجب أن نشير إلى أنّه إذا كانت اللغة أهم وسيلة للاتّصال فإنّ هذا لا يعني إلغاء بقية الوسائل الأخرى، كتلك التي ذكرها الجاحظ(17)، ولذا أي تعريف للاتّصال لا بدّ أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الأمور.

فالاتّصال عملية مركّبة تقوم على استعمال وسيلة معيّنة -من أكثرها اللغة- لنقل المعلومات والخبرات إلى الآخرين، تتأسّس على مجموعة من العناصر الضرورية لإنجاح الاتّصال، وتبتغي إشراك المرسل إليه فيما يريده المتكلّم، لذلك فهي هادفة إمّا بتلقّي الإجابة عن المتلقّين، أو التأثير فيهم من أجل تبنّي فكرة ما، أو غير ذلك لأنّ غايات الاتّصال تتنوّع.

3- شروط الاتّصال:

لكي تتم عملية التواصل لا بدّ من توافر مجموعة من الشروط التي تساعد على نجاحه، وهي متنوّعة بحسب أركان الاتّصال؛ إذ هناك شروط خاصة بالمرسل، وأخرى متعلّقة بالمرسل إليه، وأخرى مرتبطة بالرسالة وغير ذلك، ولكنّنا سنتحدّث في هذا المقام عن

---

(15) Voir Dictionnaire de linguistique, paris librairie la rousse, 1973, p ;96 .

(16) ينظر اللغة والتواصل، الجزائر دار هومة، 2000، ص78-79.

(17) اللفظ والإشارة والخط والعقد والنصبة، ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص34.

بعض هذه الشروط بصفة عامة، على أن نفصّل أكثر في حلقات بحثنا حيث سنخصص لكل ركن مبحثا خاصا، وهذه الشروط هي:

- أن يأخذ المرسل بعين الاعتبار جميع التحوّلات العلمية والثقافية لمجتمعه.

- يجب أن يكون المرسل على وعي تام بمضمون الرسالة المراد تبليغها، ومدى تعبيرها من الواقع.

- العمل على ربط خبرة المرسل وأثرها في الوسط الخارجي بخبرة المستقبل للرسالة.

- التأكد من التجانس التام في النظام التواصلي بين المرسل والمستقبل لحمل الخبرات المراد نقلها من مرسل إلى مرسل إليه(18).

4- البلاغة والاتّصال والتداوليّة:

تحتلّ البلاغة مكانة مرموقة في الدراسات الأدبيّة واللغوية؛ إذ أصبح يُنظر إليها ليس كعلم لتحليل النصوص في بعدها الجمالي؛ بل هي تنزع لأن تكون علما واسعا للمجتمع(19) فقد تطوّرت في العصر الحديث، ويرجع ذلك إلى إفادتها من مناهج البحث في مختلف الحقول المعرفية، وهذا ما أشار إليه "هانريش بليث H.bleath" الذي يقول: «إنّ سبب هذه النهضة البلاغية يرجع، في مجال التنظير، إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية، ونظريات التواصل والسيميائيات، والنقد الأيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها»(20).

وهذا التقارب سرّه أنّ البلاغة تعالج قوّة التأثير في الآخر وكيفية إقناعه، وبيان كل المقاصد التي يهدف الباث إلى تحقيقها. وهذه النقطة تعدّ من أهم مباحث التداوليّة التي تدرس التفاعل الاتّصالي بين الخطيب والمخاطب، وما يحدثه الفعل الكلامي من تأثير.

---

(18) ينظر: أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعلم عامة وتعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، أحمد وطاس، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص42.

(19) ينظر: البلاغة بوصفها نظرية للخطاب، محمد بوعزة، مجلة الراية المؤقتة، مج:3، ع 1 و2، 1994، ص63.

(20) البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سميائي لتحليل النص، هانريش بليث، ترجمة محمد العمري، المغرب منشورات دراسات سال، (د.ت)، ص15.

وهذه المقاربة بين البلاغة وعلم الاتّصال والتداولية بررّتها مجموعة من الدراسات مستعينة في ذلك بالتراث البلاغي من جهة، ونتائج العلوم المستحدثة من جهة أخرى. ومنطلقهم في ذلك أنّ البلاغة أول ما تنصرف إلى دراسته هو الإبلاغ [21]، وهذا الموضوع كان ولا يزال المحور الأساسي الذي تتساءل حوله العلوم الثلاثة المذكورة.

وثمّة باحثون قدّموا بحوثا متنوّعة ربطوا فيها بين البلاغة العربية ونظرية الاتّصال، منهم جميل عبد المجيد في مؤلّفه "البلاغة والاتّصال"، والخفاجي في "نحو بلاغة جديدة التجديد والتقليد"، وغيرهما، معتمدين في ذلك على بعض المفاهيم التي تظهر الصلة الوثيقة بينهما، وتتعلّق بماهية البلاغة، والكيفية التي يكون عليها المتكلّم، وتحديد سمات الكلام البليغ، وغير ذلك من القضايا التي يدرسها علم الاتّصال. وهذا ما وضّحه عبد العزيز شرف الذي اعتبر مصطلح "البلاغة" المقابل الصحيح لـ "علم الاتّصال" [22].

قد نوضّح هذا الأمر أكثر من المعنى الذي يدلّ عليه لفظ "البلاغة"؛ فهي من «بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغة وصل وانتهى، والبلاغ ما بلغك، والبلاغ الكفاية (كفاية الإخبار)، والإبلاغ الاتّصال، وكذلك التبليغ» [23]. وربط أبو هلال العسكري (395هـ) مفهومها بما يقتضيه مدلول الاتّصال؛ إذ عرّفها بقوله: «هي كل ما تبلّغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه لتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن» [24]. ومنه نلاحظ أنّ البلاغة لديه تنطلق من فكرة التوجّه إلى المستمع باعتباره المقصود من الاتّصال، فالمتكلّم يراعي من يوجّه إليه الكلام في إطار هذا التوضيح.

وهذا الطرح دعت البلاغة الجديدة إلى الاهتمام به؛ إذ يذكر "بيريلمان Perelman" «أنّ ما ينبغي أن يُحتفظ به من البلاغة التقليدية إنّما هو فكرة المستمعين التي تنبثق من فهم طبيعة الخطاب، فكل قول يوجّه لمستمع، وغالبا ما ننسى أنّ الشيء

---

[21] ينظر: البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، مصر دار غريب، 2000، ص16.

[22] ينظر: علم الإعلام اللغوي، ص48. وينظر أيضا نحو بلاغة جديدة التجديد والتقليد، عبد العزيز شرف وعبد المنعم الخفاجي، مصر مكتبة غريب، 1996، ص56.

[23] لسان العرب، ابن منظور، بيروت دار صادر، (د.ت)، مادة (بلغ).

[24] الصناعتين، ص13.

ذاته يحدث بكل مكتوب، وبينما نتصوّر الخطاب بالنظر إلى المستمعين، فإنّ غياب القراء ماديا ربّما يجعل الكاتب يظن أنّه وحده في هذا العالم، بالرغم من أنّ نصه في الواقع مشروط دائما بهؤلاء الذين يتوجّه إليهم، واعيا أو بشكل غير واعٍ» (25). كان العسكري قد انطلق مما يُتوجّه إليه الكلام في بيان حدّ البلاغة، فإنّ هذا لا يعني عدم اهتمامه بطرف الاتّصال الأوّل؛ نقصد "المرسل"، يدلّ على ذلك قوله "لتمكّنه في نفسك".

وهذه العلاقة بين طرفي الاتّصال التي حرص على إبرازها ههنا «قد وجدت طريقها إلى نظرية الاتّصال، وبالتالي إلى التداولية التي عُنيت بالسياقات المختلفة وأطراف الموقف التواصلي عناية كبيرة. وإذا كان "لاوسبرج Lawsberj" يرى أنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلّم في موقف محدّد، فإنّ "ليش U.Leich" يرى أنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضها» (26).

لكنّ أبا هلال لا يتوقّف عند هذا الحدّ، لذلك ربط البلاغة بالمعرض الحسن والصورة المقبولة؛ فما يحيل عليه لفظ "المعرض" الشكل اللغوي الذي يتجلّى منه الكلام، أما كلمة "الصورة" فتدل على الفكرة التي يريد المتكلّم تبليغها، والغاية التي تريدها البلاغة هي إيصال التصوّر كما هو في ذهن المتكلّم إلى المتلقّي. فالعسكري ربط البلاغة بالكلام البليغ الذي يحرز المنفعة المقصودة، وهذا ما طرحته التداولية ضمن ما أُصطلح عليه بالفعل الكلامي.

وقد اشترط صاحب الصناعتين في موضع أخر للبلاغة فكرة جوهرية، و«هي أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا» (27). وهما شرطا الاتّصال الناجح كما نصّت على ذلك المفاهيم المتداولة للاتّصال.

---

(25) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، الكويت عالم المعرفة، 1992، ص94-95.

(26) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيرى، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1/ 2004، ص23.

(27) المرجع نفسه، ص19.

إذن هناك صلة وثيقة بين البلاغة والاتّصال، وفي هذا الأساس قدّم تمام حسان قراءة مهمّة وقيّمة للمصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، يقول: «وعندي أنّ المعنى البلاغي للفظ البلاغة على معنى الإبلاغ أو التواصل الذي هو موضوع من موضوعات علم الاتّصال» [28]. وقد عزّز هذه الفكرة، ودعّمها من خلال مخطط "جاكبسون Jakobson"، نوضّح ذلك مما يلي:

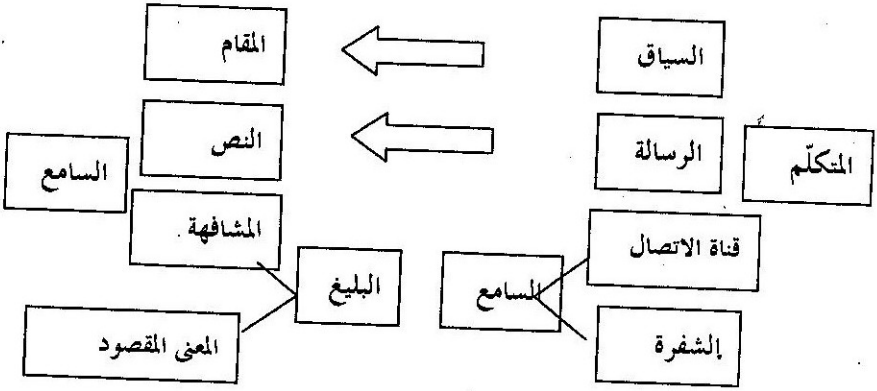
المقام
السياق
النص
الرسالة
المتكلّم
السامع
المشافهة
قناة الاتصال
البليغ
السامع
المعنى المقصود
الشفرة

ونستطيع أن نضيف إلى هذا المخطط العناصر التي تقتضيها التداولية، فهي «تهتم بثلاث معطيات لما لها من دور فعّال في توجيه التبادل الكلامي وهي: المتكلّمين (المخاطِب والمخاطَب)، السياق (الحال، المقام، الاستعمالات العادية للكلام)؛ الاستعمال اليومي والعادي للغة في الواقع» [29]. ونوضّح ذلك أكثر من المخطط التالي:

---

[28] قضايا المصطلح الأدبي، مجلة فصول، مجلد7 العددان الثالث والرابع، أبريل- سبتمبر 1987، ص27.

[29] مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، الجزائر دار القصبة للنشر والتوزيع، 2000، ص156.

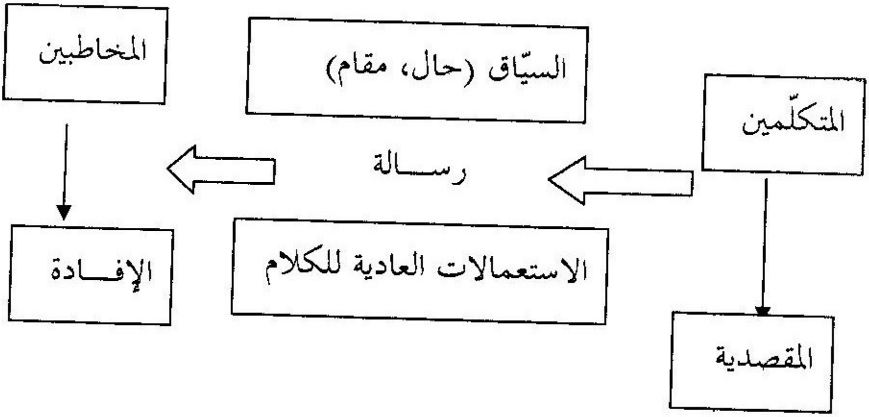

والتداولية عند مؤسسها "أوستين Austin" «جزء من علم أعم، هي دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي. وبهذا التعريف ينتقل "أوستين Austin" باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثير والتأثر» (30). فالتداولية تدرس الاتّصال اللغوي في إطاره الاجتماعي، والذي يملي خصوصيات تؤثّر في الفعل الكلامي.

كما تركّز التداولية على المقصديّة التي لا تتجلّى إلا من خلال الاتّصال اللغوي في مقام معيّن، لذا فهي تهتم «بدراسة اللغة التي يستعملها المتكلّم في عملية التواصل، وعوامل المقام المؤثّرة في اختياره أدوات معيّنة دون أخرى للتعبير عن مقصده» (31).

---

(30) التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، راضية خفيف بكري، مجلة الموقف الأدبي، دمشق اتحاد الكتّاب العرب، العدد 399، تموز 2004، ص56.

(31) تحليل الخطاب، ج. براون وج سيرل، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، السعودية جامعة الملك سعود للنشر العلمي، 1997 ص32.

ومن خلال المخططين السابقين تتبيّن العلاقة بين البلاغة والتداولية والاتّصال ؛ باعتبار أنّ البلاغة كما ذكر بعض الدارسين هي «فن القول بشكل عام، أو هي فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ»(32). أما التداولية فتعنى «بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منتظم، مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي هذا ليغطي بطريقة منهجية منظّمة المساحة التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال»(33). فكلاهما يركزان على التشكيل اللغوي الذي يكون في الموقف المعيّن، وهذا ما يجعلهما «تتّفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقّي، على أساس أنّ النص اللغوي في جملته إنّما هو نص في موقف»(34). ومنه يتّضح أنّ «البلاغة تداولية في صميمها ؛ إذ أنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محدّدة التأثير على بعضهما»(35).

وهما يلتقيان مع علم الاتّصال الذي يهتم بالعناصر التي تسهم في الإنجاز اللغوي أيضا، وتتبيّن العلاقة بدقّة بين مكوّنات البلاغة والتداولية من جهة، وعناصر الاتّصال من جهة أخرى؛ فالبلاغة هي من عمل بليغ يسعى إلى إيصال معنى إلى السامع في مقام معيّن، ولكنّها تضيف أيضا السامع في إدراك المعنى المقصود كما أوضح ذلك أبو هلال العسكري الذي يقول : «ربّما كانت البلاغة في الاستماع الحسن»(36).

وقد وضّح تمام حسان طبيعة هذه العلاقة أكثر في الإبلاغ الأدبي، فبيّن ذلك من اخلال لمخطط التالي(37)

---

(32) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص97.

(33) المرجع نفسه، ص98.

(34) المرجع نفسه، ص97.

(35) المرجع نفسه، ص97.

(36) الصناعتين، ص25.

(37) الأصول دراسة ابستيمولوجية لأصول الفكر العربي، تمام حسان، المغرب دار الثقافة، ط1/ 1997، ص387.

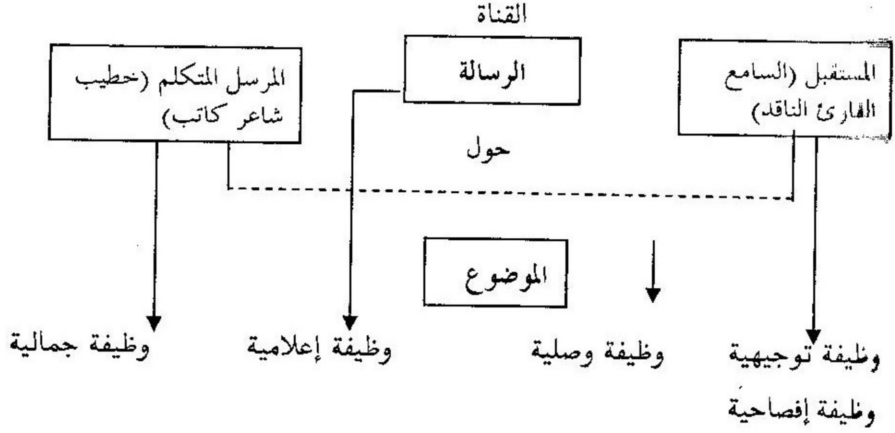
القناة
المرسل المتكلم (خطيب شاعر كاتب)
الرسالة
المستقبل (السامع القارئ الناقد)
حول
الموضوع
وظيفة جمالية
وظيفة إعلامية
وظيفة وصلية
وظيفة توجيهية
وظيفة إفصاحية

يلاحظ تمام حسان أنّ المرسل يتّخذ من اللغة أداة يبلّغ بها جملة من المعاني ماثلة في نفسه إلى المستقبل، والوظيفة ههنا إفصاحية، وبها ترتبط أيضا لغة الأدب التي تعتبر الحامل المادي لمقاصد الأديب.

أما بالنسبة للقناة التي يسلكها الكلام فتظهر في وظيفة اللغة الأساسية، وهي التواصل بشكليه الشفاهي والكتابي، ووظيفة الموضوع هي التي تحدّد الواسطة.

أما العلاقة بين المرسل والمستقبل فتتحدّد بالوظيفة الجمالية، فهي تعكس قدرات المتكلّم وأسلوبه الخاص الذي يميّزه عن غيره. وهذا ما ركّزت عليه البلاغة، وبصفة أدق طريقة التبليغ، والتي تتحدّد مع العملية التواصلية. ويمكن أن نستعين في هذا المقام بالتفسير الإعلامي الذي يفترض أنّ الأدب يقوم على مجموعة من الأسس، نوضّحها انطلاقا من النموذج الاتّصالي الشهير لـ"لازويل Lazwel" (38):

-من يقول؟

-يقول ماذا؟ الرسالة الإبداعية.

---

(38) لازويل باحث مختص في العلوم السياسية، أول من اهتم بالتواصل الجماهيري، وتأثير وسائل الإعلام والاتصال في الفرد "La communication de masse".

-لمن؟ المستمعين؟

-بأي وسيلة؟ المشافهة. الكتابة.

-بأي تأثير؟ الأدوات والآليات التداولية(39).

وقد نذكر تعديل "ريموند يكسون R.yekson" الذي يضيف الموقف العام للاتّصال، أو ما يقابل البلاغة العربية مقتضى الحال، وبالتالي يصبح النموذج كالآتي: من يقول؟ ماذا؟ لمن؟ وما تأثير ما يقال؟ وفي أي ظروف؟ ولأي هدف؟ وبأية وسيلة؟ وفي الأخير يأتي الموضوع الذي يكوّن وظيفة الإعلام، والمقصود بها نقل المعلومات مهما اختلفت، وهو المعنى الذي يجسّده علم الاتّصال (40).

بعد عرض هذه الأفكار نلاحظ أنّها ظلت ترتكز على فكرة جوهرية، وهي أنّ علم الاتّصال تمثّله البلاغة بكل شروطها؛ كونها تهتم بـ «الكلام الذي يرسل إرسالا، فتطلب منه الإفادة والإصابة وإفهام المعاني على وجه بديع، وتركيب لطيف. وهي المعايير التي نزن بها الأسلوب على نحو ما يتحقّق به غرض المنشئ حيث يستخدم الكلمة في تحقيق ما يريد» (41).

فهذا التوضيح يقودنا إلى تحديد أبعاد الاتّصال بشكله العام، والاتّصال الأدبي أو الإبداعي بشكله الخاص، والتي ترجع إلى:

1-الكلام: وهو الملفوظ الذي يُرسل من طرف المتكلّم (مرسل، خطيب، شاعر، كاتب).

2-الإرسال: يتم عن طريق قناة (المشافهة أو الكتابة).

3-الرسالة: ما يريد المتكلّم إبلاغه إلى الآخرين، وتقتضي حسن التأليف والتركيب.

4-الهدف: الإفادة والإصابة، بالإضافة إلى بسط المعاني بأسلوب متأنق.

---

(39) ينظر نماذج الاتّصال في الفنون والإعلام والتعليم وإدارة الأعمال، عبد العزيز شرف، مصر الدار المصرية اللسانية، ط1، 2003، ص129.

(40) ينظر المرجع نفسه، ص130.

(41) التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، صالح بلعيد، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص41.

5- الكلمة: حين تستخدم في مكانها المناسب أو سياقها تؤدّي دورها الفعّال في تحقيق مقاصد المرسل، وهذا انطلاقا من المقولة المشهورة في البلاغة العربية؛ والتي توصي بأنّه "لكل مقام مقال". وهذا ما ركّزت عليه التداولية فهي –كما يذكر صلاح فضل– «العلم الذي يعنى بالعلاقة بين بنية النص والموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظّم» (42). وقد ربطها بشكل مباشر بفكرة "مقتضى الحال"، يقول: «ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظّمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة "مقتضى الحال"، والتي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال» (43).

خاتمة:

بناءً على هذه المعطيات حاولنا أن نكشف عن طبيعة العلاقة بين الاتّصال اللساني والتداولية، انطلاقا من تلك الآراء والأفكار التي طرحها بعض العلماء؛ فلاحظنا من طرح المفاهيم المتعلقة بالاتّصال اللساني والتداولية ذلك التداخل في اهتمامات هذه العلوم؛ فهي تبحث جميعها في طبيعة العملية الاتّصالية وأركانها، ولكن هذا لا يعني إلغاء طابع الاختصاص الذي يتطلّبه كل حقل؛ فإذا كانت البلاغة تركّز على التقنيات البلاغية التي تقتضيها الرسالة التي يشكّلها المتكلّم حتى يحقّق غرضه المطلوب، فإنّ علم الاتّصال يهتم بالعناصر التي تسهم في الإنجاز اللغوي بغية ضبط الأساسيات التي تشارك في نجاح العملية الإبلاغيّة ككل، أمّا التداولية فتنهض بالكشف عن مقصدية المتكلّم انطلاقا من طبيعة العلاقة بين الفعل اللغوي و الموقف الاجتماعي.

---

(42) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص26.

(43) المرجع نفسه، ص26.

مكتبة البحث :

1-المصادر والمراجع :

-الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو يعقوب، مصر دار مجدلاوي، (د .ت).

-الاتصال والخدمة الاجتماعية، أميرة منصور يوسف علي، مصر المكتب الجامعي الحديث، 1999.

-الاتّصال ونظرياته المعاصرة، حسين عماد مكاوي وليلى حسين السيد، بيروت الدار المصرية اللبنانية، ط2.

-الأصول دراسة ابستيمولوجية لأصول الفكر العربي، تمام حسان، المغرب دار الثقافة، ط1/1997.

-أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعلم عامة وتعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، أحمد وطاس، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، الكويت عالم المعرفة، 1992.

-البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، مصر دار المعارف، ط2.

-البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، مصر دار غريب، 2000.

-البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سميائي لتحليل النص، هانريش بليث، ترجمة محمد العمري، المغرب منشورات دراسات سال، (د .ت).

-البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل، 1992.

-تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، القاهرة، (د .ت).

-تحليل الخطاب، ج. براون وج يول، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، السعودية جامعة الملك سعود للنشر العلمي، 1997.

-التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، صالح بلعيد، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.

-تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، المغرب، دار المغرب، 2000.

-علم الإعلام اللغوي، عبد العزيز شرف، مصر دار لونجمان للطبع، 1995.

- علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيرى، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1/2004.

- لسان العرب، ابن منظور، بيروت دار صادر، (د .ت).

-اللغة والتواصل، عبد الجليل مرتاض، الجزائر دار هومة، 2000.

-مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، الجزائر دار القصبة للنشر والتوزيع، 2000، ص156.

مدخل إلى نظريات الاتّصال المعاصرة، محمد مزيان، الجزائر منشورات دار لالة سكينة، ط1.

مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيرية، فضيل دبليو، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998.

- نحو بلاغة جديدة التجديد والتقليد، عبد العزيز شرف وعبد المنعم الخفاجي، مصر مكتبة غريب، 1996.

-نماذج الاتصال في الفنون والإعلام والتعليم وإدارة الأعمال، عبد العزيز شرف، مصر الدار المصرية اللسانية، ط1، 2003.

2-المراجع الأجنبية :

-Dictionnaire de linguistique, paris librairie la rousse, 1973.

3-المجلات :

البلاغة بوصفها نظرية للخطاب، محمد بوعزة، مجلة الراية المؤقتة، مج :3، ع 1 و2، 1994.

-التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، راضية خفيف بكري، مجلة الموقف الأدبي، دمشق اتحاد الكتّاب العرب، العدد 399، تموز 2004.

-- قضايا المصطلح الأدبي، تمام حسان، مجلة فصول، مجلد7 العددان الثالث والرابع، أبريل- سبتمبر 1987.